الآثار الاسلامية القديمة

ببغداد

لمصطفى جواد

١ — ماذا بقي من مدينة أبي جعفر المنصور ؟

أصبحت بغداد مثالاً لتغير المدن وتحوّلها وتطوّرها ، فلقد تداولتها أيدي الطبيعة وأيدي البشر ، فعفّت على آثارها وطمست حضارتها وزخرفها ، وشوّهت محاسنها ، فهي ثكلى المدن وسجل المصائب ومدفن العسف والعيث ، ولذلك قلنا في رثاء الملك فيصل الاول :

نُبِّئْتُ العرشَ في مهاوي عروش قد رماها الزمان رمياً وبيلا

كانت تحرق أو تهدم قصورها ودورها وتغير عليها دجلة حيناً بعد حين فتجعل عامرها كغامرها وآهلها كوحشها ، وتتكاثف عليها الاحداث فتنضح من مكانها وتبعد الناس عنها ، وكانت يد العسف والانتقام تسطو على العمارة والحضارة ، حتى ان ابن بسّام الشاعر لما نعى على أحد الوزراء ما نعى قال له :

بجنبك داران مهدومتا نِ ودارك ثالثة تُهدَمُ
فليت السلامة للمنعمين تدومُ فكيف لمن يظلمُ ؟

فعلمنا ان داري وزيرين قد هدمتا بجانب دار هذا الوزير ويخطر ببالي انه «ابن الجراح» واليوم لا ترى عمارة من مدينة المنصور المدوّرة ولا أثراً ، وآخر الحوادث الخاصة بالقبة الخضراء العظيمة التي بناها المنصور بجوار جامعه ان جدرانها وقعت في سنة «٦٥٣» هـ أي قبل سقوط الدولة العباسية بثلاث سنوات ، وكانت عالية ينظر الجالس منها من يخرج من الأنبار [1] ، وكان المنصور يجلس فيها متنزهاً ، وما زال الخلفاء يجلسون فيها للفرجة الى أيام الرشيد ثم هجرت وصارت مأوى للبوم والغربان ، وكان بعض الفقراء مجاوراً في جامع المنصور ، فقال في القبة لما رأى ما آلت اليه حالها :

يا قبة الخضراء قد أنست روحي بروحك اذ يستبشع البومُ
زهدت في زخرف الدنيا فأسكنك الـ ـربع الخراب فمن يذمك ملوم [2]

---

(١) الأنبار ذات حوادث عظيمة في تاريخ الاسلام ولم يهتد أحد الى موضعها بعد . وجاء «في فوات الوفيات بترجمة الشاعر» بنيت له الطاشية الى جانب الأنبار وبها قبره وهي المعروفة الآن بالأنبار لان الاولى درست ١ : ٤٢٣٢ (٢) الحوادث الجامعة لعبد الرزاق بن الفوطي (ص ٩٤ من نسختنا الخطية)

وجهل الناس موضع مدينة المنصور فلم نجد الاَّ دليلاً واحداً يعين لنا موضعها وهو المسجد المعروف بمسجد « المنطقة » وترى صورته الحاليَّة ذات الرقم « ١ » . قال صفي الدين عبد المؤمن ابن عبد الحق الحنبلي المتوفي سنة «٧٣٩» هـ « سوثايا » : بضم أوله وبعد الواو الساكنة ثون وبعد الالف ياء مثناة من تحت وألف مقصورة ، قرية قديمة كانت ببغداد ينسب اليها العنب الاسود الذي يتقدم ويبكر على سائر العنب . . . ولما عمرت بغداد دخلت في العمارة وصارت محلة من محالها وهي « العتيقة » وبها مسجد لعلي بن أبي طالب يعرف بمشهد المنطقة »[1]

فهذا هو الموضع الوحيد المحافظ على اسمه من مدينة المنصور المدوّرة . وحوادثه مفصلة في تاريخ الخطيب ومناقب بغداد لابن الجوزي الصغير قتيل هولاكو ، وكتب رجال الشيعة مثل «رجال النجاشي» ومسجد المنطقة اليوم في غرب بغداد وقد اتخذه الشيعة مقبرة وفيه حجرة بها اسطوانة مثمّنة اللون من الرخام يزعم العوام ان الماء نبع منها لما احتاج الامام علي — عليه السلام — الى الماء

٢ — منارة مسجد قريّة

ومن الآثار الاسلامية العباسية « منارة مسجد قرية » ببغداد الغربية اليوم ، وهي التي ترى صورتها مرقومة بـ « ٢ » فهذه المنارة متقنة البناء جميلة التنسيق ، حافظت لنا على طرز من البناء في عهد بني العباس ، قال عبد الرزاق ابن الفوطي في حوادث سنة «٦٢٦» من خلافة المستنصر بالله «وفي شعبان تكامل بناء المسجد المستجد[2] بالجانب الغربي على شاطىء دجلة المقابل للرباط البسطامي ونقل اليه الفرش والآلات وقناديل الذهب والفضة والشموع وغير ذلك ، وفتح في شهر رمضان ورتب فيه مصلّيًا الشيخ «عبد الصمد بن أبي الجيش» وأثبت فيه ثلاثون صبيًّا يتلقنون القرآن عليه ورتب فيه معيد يحفظهم التلاقين ورتب أيضاً فيه الشيخ حسن بن الزبيدي محدثاً يقرأ عليه الحديث النبوي في كل يوم اثنين وخميس ورتب ايضاً قارىء للحديث وجعل في المسجد خزانة للكتب حمل اليها كتب كثيرة[3]» وبقية أخبار هذا المسجد في الحوادث الجامعة وغيرها واما نحن فذكر الضروري

٣ — المدرسة المرجانية

يسميها الناس اليوم «جامع مرجان» ويرى في الصورة الثالثة بابها ومنارتها والقبة التي دفن تحتها « مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن » واني بغداد في أواسط القرن الثامن للهجرة ، وهذه الصورة رسمت بعد ما هدم الأزج الذي كان أمام المدرسة ، أمر بهدمه «خليل باشا» القائد العام في العراق وفارس زمن الحرب العامة لاشتقاق الشارع المعروف اليوم بشارع الرشيد وسمي اذ ذاك « خليل

(١) مراصد الاطلاع على الامكنة والبقاع (ص ٢٢٩ من طبعة ايران)

(٢) وفي الخشبة زيادة « المعروف بتمرية » وهي بخط المؤلف كما في النسخة التيمورية

(٣) الحوادث الجامعة (ص ١ من نسختنا المطبوعة)

١ — مسجد العتيقة المعروف بالمطقة قديماً وحديثاً

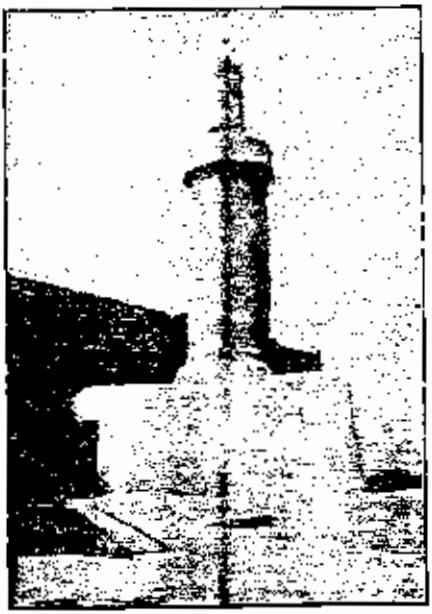

٢ — منارة مسجد قرية

٣ — باب المدرسة المرجانية

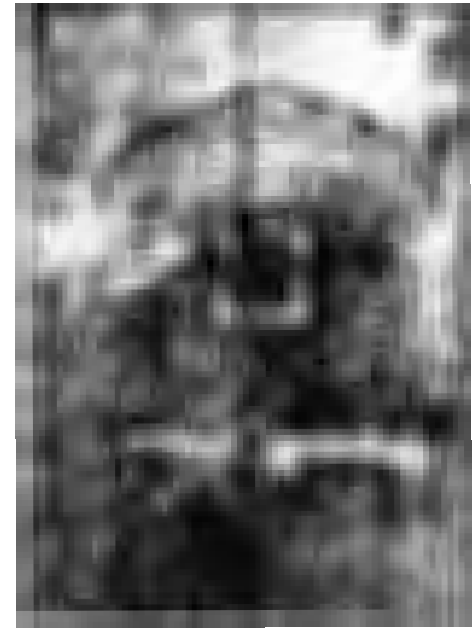

٤ — باب خان مرجان المعروف بأورتمه

٥ — باب كلواذى احد أبواب بغداد الشرقية

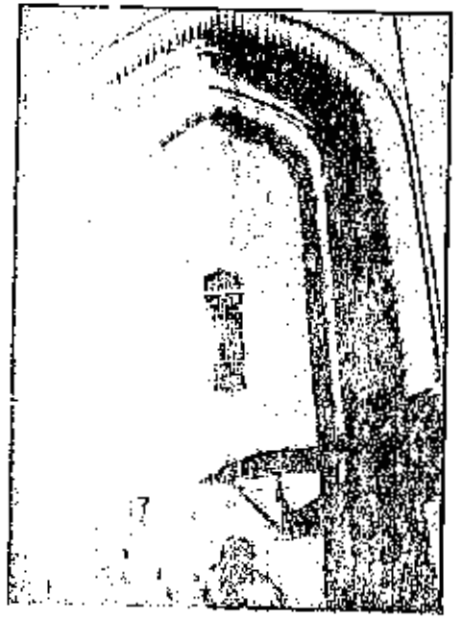

٦ — صورة ثانية لباب المدرسة المرجانية

باشا جاده مي» وقد رمم باب المدرسة المرجانية في عهد الحكومة العربية فأصبح هو والطاق — على ما ترى — في الصورة الرابعة

وفوق باب المدرسة كتابة بديعة تمثل أحسن ما وصل اليه الخط العربي من التحسين في اواسط القرن الثامن للهجرة ويظهر من هذه الكتابة ان أم السلطان الشيخ الجلايري (من المغول) أمرت ببنائها وحوتكها وان عفا الزمان بعض كلماتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يخشى الله من عباده العلماء ، أنشأ هذه المدرسة المباركة والمصلّى من صدقات . . . . السعيد . . . . أنار الله برهانها في دولة ولدها النويان [1] الأعظم ال . . . السعيد شيخ حسن . . . الله وكلت في اياله ولده النويان الاعظم ناشر العدل في العالم سلطان السلاطين غياث الدنيا والدين ومغيث الاسلام والمسلمين شيخ أويس نويان . . . الله دولته بمولانا الصاحب الاعظم ملجأ وملاذ الامم مربي الملوك وعضد السلاطين وكهف الضعفاء المخصوص بعناية الرحمن امين الدين مرجان أسبغ الله عليه نعمه الجز [يلة] إنهُ هو الكريم المنّان ، ابتدأ عمارة هذا المكان في تاسع جمادى . . . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبي الرحمة وشفيع الامة ومجلّي الغمّة وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين ، كتبهُ العبد الضعيف المحتاج الى رحمة الله تعالى احمد شاه النقاش المعروف بزدين قلم التبريزي غفر الله ذنوبه وستر عيوبه »

وفي وجه هذه المدرسة من الرياذة العجيبة والزخرف البنائي البديع والنقش الجميل ما يبهر الناظر ويدهش الالباب ويذكر بفنون دارسة يعجز عن تقليدها بناة القرن العشرين أبداً ، وفي داخل المدرسة كتابات متعددة ولاسيما المُصلّى ، فقد رقمت على جدرانه « وقفية المدرسة المرجانية » قال عبد الله بن فتح الله البغدادي الملقب بالغياث في تاريخ السلطان اويس بن الشيخ حسن ثاني سلاطين الدولة الجلايرية بالعراق « بويع بالسلطنة ببغداد سنة ستين وسبعمائة وكان محبّاً للخير والعدل شهماً شجاعاً عادلاً خيراً وكان له من العمر عشرون سنة حين بويع وخطب له بمكة وارسل الى مكة مالاً جليلاً وقناديل ذهب وفضة للكعبة تخطب باسمه في الحرم الشريف وكان والي مكة حينئذٍ « عجلان ابن رميثة » . . . وانفق في زمان السلطان اويس عمارة عظيمة لم يتفق في دور احد السلاطين مثلها منها المدرسة المرجانية ودار الشفاء [2] والسوق وخانات عمّرها « مرجان » آقا وكان طواشيّاً [3] رومي الاصل يلقب امين الدين مرجان ، وكان اذا توجه السلطان الى تبريز تولّى مرجان على بغداد . . وكان مرجان رجلاً خيّراً استأنف عمارات وجدّد عمارات دارّة من قديم ثم اوقف عليها العقار

(١) النوين بفتح النون واشباعها الضم وتسكين الواو وفتح الياء و «النويان» هو السلطان والامير عند المغول

(٢) دار الشفاء كانت على ضفة دجلة الشرقية وتعرف اليوم بقهوة الشط بل كانت اوسع كثيراً

(٣) الطواشي الخصي

والصباغ — كما نطقت به وقفيته — ونقرأ ذلك على جدران المهارات وكان له خيرات على الفقراء والمساكين حتى اطعم السنانير والزرازير توحيتان النشط والطيور من اللحم والخبز والشيلم في صحن دار الشفاء وصحنها على جانب دجلة »[1]

٤ — خان مرجان

وهو الذي نرى بعض بابه وما فوقه من الكتابة في الصورة ذات الرقم « ٥ » والخط يمثل أحسن ما وصلت اليه قواعد الخط في اواسط القرن الثامن للهجرة في العالم الاسلامي كافة ، وسمي الترك هذا الخان « اوروتمة » لظلامه ، وهو من المهارات المدهشة حقا ، ودونك ما فوق بابه الغربي الشمالي من الكتابة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، امر بانشاء هذا النيم [2] والمنازل والدكاكين المولى المخدوم الامير الصاحب الاعظم الاعدل ملك ملوك الامراء في العالم صاحب العدل الموفور عضد السلطنة والامارة حاوي مرتبة الامارة والوزارة افتخار شهد الاوان المخصوص بعناية الرحمن أمين الدين مرجان الاولاقايتي ، ووقفها على المدرسة المرجانية ودار الشفاء بباب الغربة ، كذلك عقرقوف والنصف من القائمية وتل رحيم ومزرعة بالصراة وبساتين بالمخرمية وبساتين بقرية الفرك والزادمان وخرماباد ورباط جلولا المعروف بقزلرباط وزرين جوي ونصف دوري وبساتين ببعقوبا وبوهريز والبندنيجين وخان ودكاكين بالحلبة واربع خانات ودكاكين بالجوهريين وخان بالجانب الغربي ودكان كاغد بالحريم — كما هو محدود مشروح في الوقفية — وقفا صحيحا شرعيا تقبل الله منه الطاعات في الدارين وبلغه نهاية المراد ، وكان الفراغ منه سنة ستين وسبعمائة ، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي العربي الصادق وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه وسلم ، كتبه الفقير الى رحمة ربه احمد شاه النقاش المعروف بزرين قلم غفر الله ذنوبه »

٥ — باب كلواذى (البصلية)

والرسم السادس لباب كلواذى من ابواب بغداد الشرقية المصورة ويعرف ايضا بباب البصلية وتظهر فيه مرامي السهام وصفتها انها كالكوة الصغيرة من داخل سور الباب وكالشباك من خارجه ليجد الرماة متسعا لتوجيه السهام وتصويبها إلى نواح كثيرة ، ولهذا الباب ذكر كثير في التاريخ ، وقد رمم واتخذته الطائفة الانكليزية البروتستانية كنيسة لها حتى هذه الايام

القاهرة مصطفى جواد

(١) التاريخ انياني عن نسختنا مخطوطة (٢) النيم هو النصف بالفارسية ، والظاهر انهم كانوا يريدون به « نصف سرداب » لقلة دركاته